مجلة أنساق للفنون والآداب والعلوم
الإنسانية
الإصدار الرابع عشر
المجلد (٥) العدد (١)
٢٠٢٤ (٥٧-٦٤)
مجلة أنساق
Middle East Institution of scientific Publishing

نسق الجندر في رواية " لا أتنفس" لزهور كرام

ساسي فوزية

طالبة دكتوراه، مؤسسة الانتماء: كلية اللغة العربية وآدابها مولود معمري تيزي وزو – مخبر تحليل الخطاب–

نشر إلكترونياً بتاريخ: ٢٤ فبراير ٢٠٢٤م

This work is licensed under a Creative Commons Attribution-NonCommercial 4.0 International License.

الملخص

تعد الرواية أهم الأجناس الأدبية في العصر الحديث، كونها الجنس الأدبي الأقدر على استيعاب تطورات الحياة المستجدة، خاصة الثقافية منها والاجتماعية، حيث تتشكل مجرياتها وفق أنساق مختلفة يتشكل من خلالها النسيج السردي الروائي، واللافت في هذه الأنساق أنها تعالج ظواهر بارزة وأخرى مضمرة مسكوت عنها، وظهورها للعلن يتطلب جرأة فكرية ورؤية نقدية شاملة، ومع بروز منهج الشك عند ديكارت، صار لزاما علينا إعادة النظر في بعض المسلمات التي ساد طغيانها ردحا من الزمن، فالمسلمة التي تدعو إلى تصنيف الجنس البشري إلى ذكر أو أنثى، أصبحت أمرا نسبيا، ولابد من إعادة إثارة الموضوع من جديد، في هذا الصدد يقول فوكو "عمل الفكر أن يجعل كل ما هو راسخ موضوع إشكال"(1).

الكلمات المفتاحية: الجندر، النوع الاجتماعي، المركزية الفحولية، أنساق ثقافية، تعرية الفحل، اضطراب الهوية الجنسية.

Abstract

The novel is considered the most important literary genre in the modern era, as it is the literary genre that is most capable of absorbing new developments in life, especially cultural and social ones, as its course is shaped according to different formats through which the narrative narrative fabric is formed. What is striking about these formats is that they address prominent phenomena and others hidden that are silent about. Its appearance in public requires intellectual boldness and a

comprehensive critical vision, and with the emergence of Descartes' method of skepticism, it has become necessary for us to reconsider some of the axioms that have prevailed for a long time. The axiom that calls for classifying the human race into male or female has become a relative matter, and must be reconsidered. Raising the issue again. In this regard, Foucault says, "The work of thought is to make everything that is established a problem"

Keywords: gender, masculinity, cultural patterns, stripping the stallion, sexual identity disorder.

تزامنا مع الانفتاح الذي تشهده البشرية، بات من الضروري أن نقف وقفة مغايرة، تتساير وفق معطيات جديدة، تمليها علينا الحياة بكل مناحيها، وعلينا أن نكتشف أنساقها الكامنة فيها، فالرواية اليوم أصبحت تطرح العديد من القضايا الجديدة المتعلقة بالجنس البشري، فهي تنظر إلى التوزيع الغير العادل للأدوار المختلفة التي تحكم البشرية، والتي راح ضحيتها الجنس الأنثوي، وعلى هذا الأساس ناظلت العديد من النساء لاسترداد مكانتهن، التي ضيعت منذ أزل بعيد، ومع هذه الحركة النسوية، ظهرت قضية اجتماعية، تدعى قضية الجندر.

ونظرا لما يطرحه الخطاب الروائي من إشكالات متعددة، تتمحور حول علاقة الرجل بالمرأة، سنناقش في بحثنا جملة من الأسئلة المرتبطة بالهوية الجندرية وتمظهرها في الخطاب الروائي:-

١- فما هو مفهوم الجندر؟

٢- وكيف عالجت رواية " لا أتنفس" لزهور كرام هذه القضية؟

٣- وفيما تمظهر نسق الجندر في النص الروائي؟

٤- وما هي أهم تمظهرات أنساق الفحولة، التي تنتجها ثقافة المجتمع العربي في ضوء حيل الثقافة والتي تمررها خفية وتبثّها في النسيج الروائي؟

وللإجابة عن هذه التساؤلات علينا أن نحدد مفهوم الجندر.

*** مفهوم الجندر أو النوع الاجتماعي**

يعدّ موضوع المرأة وقضاياها من أكثر الموضوعات تناولا وطرحا في عصرنا هذا، فقد خرجت هذه المرأة من صمتها، مطالبة بكامل حقوقها، فظهرت ما يسمّى بالحركات النسوية، وكان ذلك في ثمانينيات القرن العشرين، ونتيجة لذلك ظهرت قضية جديدة تدعى بقضية الجندر، حيث برز هذا المصطلح في أمريكا الشمالية، ومن ثم أوروبا الغربية عام 1988، ظهر هذا المصطلح كرد فعل نحو الإتجاه البيولوجي، الذي يرى أن الفروق الطبيعية بين الذكر والأنثى، هي فروق مبنية على التكوين البيولوجي للجسم من هرمونات وكرموزات ومؤثرات جينية مسؤولة عن سلوك الرجال والنساء.

بينما الاتجاه الاجتماعي يرى أن التنشئة الاجتماعية هي التي تحدد الأدوار التي يقوم بها الذكر والأنثى، من خلال تعلم الأدوار، حيث يتم تلقين الفرد عن طريق التربية والوالدين، ووسائل الإعلام، ويقصد بالجندر " دراسة المتغيرات حول مكانة كل من المرأة والرجل بغض النظر حول الفروقات البيولوجية بينهما، وفقا لدراسة الأدوار التي يقومان

بها"(2) ، فالأدوار الجندرية متبادلة حيث يمكن للرجل أن يقوم بأدوار المرأة والعكس.

إن الفروقات البيولوجية مختلفة مظهريا، لكن الجنسين متكافئين في الأدوار، والغرض من هذا الاختلاف المظهري هو الحفاظ على بقاء النوع، فالفرق بين الذكر والأنثى ليس نابعا عن فروقات بيولوجية محددة للجنس الذكر أو الأنثى، بل هي فروقات ناجمة عن التنشئة الاجتماعية، "فالذكر لا يولد رجلا، ولا أنثى تولد امرأة"(3)، فلا طالما كانت المرأة منذ القديم متكافئة المكانة مع الرجل،

غير أن السلطة الذكورية تتسع دائرتها يوما بعد يوم، لتصبح بذلك الأنثى متاع يبتاعها، الرجل كيف مشاء، "فالرجل يعتبر جسمه، كما لو كان كائنا مستقلا يتصل مع العالم اتصالا حرا خاضعا لإرادته هو"(4)، بينما يعتبر جسم المرأة شيئا حافلا بالقيود التي تعرقل حركة صاحبته، ألم يقل أفلاطون " الأنثى هي أنثى بسبب نقص في الصفات"(5)، فهذا التميز لا مبرر، جعل من الحركات النسوية تنشط في جميع المجالات، ومن أبرز هؤلاء النسوة سيمون دي بوفوار (S. De Beauvoir)، وكايت ميلت(k. Millett) صاحبة "السياسة الجنسية"، ماري إلمان " (M. Ellman) صاحبة "التفكير في المرأة"، وغيرها من النسوة اللواتي ناضلن من أجل تحرير المرأة، واسترداد مكانتها أمام السلطة الذكورية ، ومنحها كامل حقها ، وتقويم وضع المرأة في المجتمع في ضوء سيطرة الرجل، والقضاء على التمييز ضد المرأة.

٢- الهامشية الأنثوية في ظل المركزية الفحولية

من خلال قراءتنا لرواية "لا أتنفس"، ما لفت انتباهنا هي وجود نسق يختفي خلف المتن الروائي، فالمعاناة والشعور بالدونية التي تعيشها المرأة في ظل هيمنة الرجل، يزداد كل حين، فأصبح هذا الفحل يمارس كل أنواع العنف الجسدي والنفسي على المرأة، بوصفه شكلا من أشكال السيطرة الذكورية، التي سعى الفكر البشري منذ أجل بعيد في تكريس المركزية الفحولية، إذ "يقف مجتمع كامل على تغذية ثقافة ذكورية راسخة"(6) .

كنتيجة حتمية نرى أن القهر الاجتماعي، يؤدي إلى "ردود أفعال قهرية أيضا، ولا يستطيع المغلوب تابع أن يتخلص من أعباء التبعية والغلبة" (7)، ظلت الأنثى لعبة في يد الفحل يستخدمها كمتاع لقضاء حاجته الغريزية، لتصبح المرأة بذلك مجرد جسد عليه أن يمارس وظائفه، وفق شروط المجتمع الذكوري.

وقد تجسد ذلك في الرواية، من خلال شخصية "س ع" التي كانت تعيش حياتان، حياة بسرّ الصندوق البني، الذي يحمل في طياته ذكريات عشيقها منذ ثلاثين عاما، وحياتها مع زوجها الذي لا يفقه في الرومانسية شيء، فكان يطلبها وإن كانت غير راغبة به، يرغم رغبته على رغبتها المعطلة، وغير مبال بها، فأصبحت امرأة من ذلك المجهول، حتى أن تسميتها ب(س ع)، تحمل في طياتها دلالات مرتبطة بأنها امرأة فقدت هويتها منذ اتصالها بهذا الزوج المتسلط، فاسم الشخصية "يكون بمثابة دال من حيث أنها تتخذ أسماء أو صفات تلخّص هويتها"(8)، فهي لا تعي ذاتها ولا تحقّق أنوثتها، ف"الوصل بين المرأة والرجل لمجرد حاجة غريزية، يقتل في الإنسان روحه أو حقيقته الإنسانية، لأن الوصل الي تحركه الحاجة، يقف حاجزا أمام معرفة الإنسان بذاته وبالأخر"(9)، وهو رجل سكير عندما يأتي الليل يصير جوفه برميلا للكحول، تقول

"س ع": "فتحت الباب، ارتمى علي كقطعة لحم منسية خارج المبرد، دفعتني الرائحة الكريهة بقوة إلى الوراء، عادة عندما كان يدخل علي وقد تبلل سرواله من كثرة قنينات الكحول الرّخيصة، أنفجر صراخا، وأندب حظي"، فبالرغم من أخلاقه المتدنية، غير أنه يحظى بمنزلة اجتماعية، فالخلفية الثقافية السائدة تقدس المذكر، الذي يمارس فحولته في كل حين، وإن كانت أخلاقه منافية لتعاليم المجتمع، " فعادة العرب أن تغلّب التذكير على التأنيث" (10)، المهم أن يكون المذكرا حتى وإن كان رجلا غير صالح .

كما ساهمت المرأة ذاتها في إرساء هذه المركزية، حيث نجدها هي نفسها تتبنى هذه النظرة، التي ترى أن النساء أدنى بالفطرة من الرجل، حيث تركت الفرصة لهذا الفحل، أن يستغلها، وتصبح خاضعة له كنتيجة "لهذا التاريخ الراسخ تقلصت المرأة، وأصبحت مجرد جسد، وتم استثمار هذا الجسد ثقافيا، وجرى دفع المرأة لأن ترى نفسها على أنها جسد مثير، وصارت تسعى إلى إبراز هذا المعنى فيها"(11) ، وكنتيجة لذلك ظل جسد المرأة وأناقتها من أهم مصوغات الحب والزواج، حتى إن شخصية "جسر" في الرواية، والذي يمثل الشاب الذي أحب "س ع" وتعلّق بها دون أن يعرف هويتها، بل تعارفا عن طريق صفحة الفايس بوك، كان دائما يبحث عن صورها، لتكتمل صورها الافتراضية في ذهنه، ولكن في قرارة نفسه، تمنى لو تكون امرأة جميلة وأنيقة.

فالجمال والأناقة بمثابة إكسير الحياة لكل حب وزواج، فعندما قدمت "س ع" لزيارة "جسر" في شقته وجدته غائبا، فتركت له عند حارس البناية طردا بغلاف وردي مذهب، اعتبر هذا اللّون نوعا من الإغراء، كما افترضه "جسر" جزءا من أناقة السّيدة، وكان في كل مرة يسأل الحارس، هل السّيدة التي أعطتك الغلاف امرأة أنيقة؟ فالأناقة مطلب كرّسه الجنس الذّكوري، وجعله الجنس الأنثوي أمرا حتميا، فالمرأة القبيحة لا حظّ لها في الحب ولا حتى في الزّواج، على خلاف الزوج فيحظى بامرأة جميلة، حتى وإن كان معيوبا.

لقد كان للروائية هدفا مثمرا قصده تعرية الفحل، من خلال "كشف حيل الثقافة في تمرير أنساقها تحت أقنعة ووسائل خافية، وأهم هذه الحيل الجمالية التي من تحتها يجري تمرير أخطر الأنساق تحكّما فينا"(10)، فالنسق المضمر يستتر وراء الجمالية الفنية التي يمنحها السرد الروائي، فيصبح الدور الحقيقي "للمرأة الساردة هي الثورة على النسق القيمي المهيمن، ونسق الأصنام التي يستدعيها الرجل باستمرار"(11)، في حين أن هذه المهمة مهمة صعبة، تتطلب سخط جمعوي، وتكاثف نسوي، ويبدو من خلال الرواية أن "زهور كرّام " من إحدى المناضلات التي جعلت من الدّفاع عن المرأة قضيتها الأساسية، وظهر ذلك جليا حين استعارت لسان شخصيات روايتها لتعبّر عن آرائها، تقول "س ع" : كنت من المناصرين للمرأة، انتميت إلى جمعيات الدّفاع عن حقوقها، وعندما يحتدم النقاش إلى الواجبات كنت أنسلخ دون أن أُرى، وألتحق بأخرى، وأدافع عن حقوق المرأة بألا تّرى جسدا، وأقرأ كثيرا عن ماركس والتشيؤ، وأحارب كل نظرة من رجل أو امرأة، طفل أم مسن لجسد المرأة، كنتُ بالجامعة أتقدم المظاهرات دعما لسيدة اغتصبتها نظرة، وهي تسير بالشارع العام في مدينتها، كنت أخفي جسدي وأنا أرمي

باب البيت ورائي، كنتُ أجتهد لأقتل النظرة قبل مولدها. نحن نصنع الأفكار الموالية لأفكارنا"(12).

فترى "زهور كرام"، أن المرأة هي المسؤولة عن الدفاع عن نفسها، وأنها الوحيدة القادرة على تغيير صورتها النمطية التي تكرست في اللاوعي الجمعوي مقارنة بالصورة الذكورية المهيمنة على الساحة الاجتماعية، لكن تقرّ أن تحدي المؤسسة الاجتماعية أمر مستحيل، فمن " الخطأ اختيار موقف التحدي تجاه العادات والتقاليد، لأن من يقدم على ذلك يستهلك وقته وقوته دون جدوى في أغلب الأحيان"(10).

لم تقتصر تعرية الفحل على تعرية الزوج فحسب، بل تجاوزت الرواية ذلك لتشمل كل مذكر ساهم في تعاسة المرأة، كونه هذا الأخير يختفي وراء نسق ظاهر، يتمثل في دور حماية الأنثى، التي لا أمن لها إلا في كنف رجل، وهذا ما يكرّس " الصورة النّسقية للفحل الثّقافي، وعن صورة (صناعة الطّاغية)، وهي أنساق ثقافية متجذّرة وظلت تمرّ من دون نقد حتى شكّلت أساسا ثقافيّا وذهنيّا، ظلّ يعاود الظّهور، ويزيّف المشاريع الإبداعية"، ويبدو ذلك في الرواية كيف تعرضت الأم التي فقدت ابنها حينما دهسته سيارة نجمة هوليود "باربي".

عثرت الشرطة على جثته، صعقت الأم بالحادثة، وأصبحت في كل مرة تلجأ إلى المطار تنتظر وصول نعش ابنها، غير أن محاميا طرق بابها، وطلب من الأم الثكلى وابنتها بشرى، عرض بخمسين مليون، مقابل التنازل عن الدعوة، كيف لا توافق وهي أنثى لا حول لها ولا قوة، خاصة بعد أقل من أسبوع، صارت النجمة تحلق في سماء هوليوود، وابنها الصغير صار ذكرى يسهل نسيانها.

فالمحامي عوض أن ينتصر لقضيتها، ويعاقب الجاني، أصبح في المقابل فحلا يمارس سلطته الذكورية، تضطهد من خلالها الأم وابنتها، حيث لا سند لهما، فالنساء كن دائما يتعرضن للظلم، نتيجة لهذه التفرقة الجنسية، ويتحملن نوائب الدّهر، فقط لأنهن إناث، وإن كان عليهن أن يمارسنا حياتهن في ظل رضا الزوج والابن والأخ، وهذا ما "أوقعنا في حالة من العمى الثقافي التام، عن العيوب النسقية المختبئة من تحت عباءة الجمال"(11).

وها هي أم وليد أيضا ضحية أخرى وقعت في شباك الفحل المتسلط، فقد ورد في أحداث النص الروائي أن حكاية أم وليد تنتهي بفضيحة مفبركة ، "إثر خدعة صديق ابنها الذي أخذه الحسد إلى تركيب صوت أمه المّشاع في قناتها مع صوته، فكان الفيديو الشهير الذي أطاح بقناة أم وليد" ، ليحصد في المقابل أكبر نسبة مشاهدة، ولا يهمه جراء ذلك شرف هذه المرأة المسنة، تعلمت القراءة والكتابة في الحاسوب بدل السبورة، بعدما توفي زوجها وتزوج ابنها، بقيت وحيدة تغزل الفراغ ذات مرة، وهي في طريقها لزيارة ابنها وليد، التقت بامرأة عرضت عليها اللجوء لجمعية محو الأمية، فعلمتها الحروف والألوان، وأبجديات الكتابة عبر الحاسوب، وبعد مدة وجيزة نالت شهرة واسعة، بسبب الموضوعات التي تثيره.

هي امرأة ناجحة، لكن جشع الفحل وطمعه جعله يستغل نجاح هذه المرأة المسنة، ليحقق مآرب مادية، فلم تسلم الأنثى من بطش الذكور، حتى وإن كانت مسنة، فالمجتمع يرفض كل امرأة وجهت إليها أصابع الاتهام، حتى وإن كانت بريئة، تعرضت لخدعة نسجها فحل جشع، في المقابل كان تمد يدها إلى فلذة كبدها التي كرّست حياتها في تربيته ورعايته،

لكن هذا الأخير مارس أيضا سلطة أكثر ضررا من سابقها، تحكي أم وليد عن ابنها : " اندفع نحوها بكل ثقله وهجم غضبه عليها قبل أن تفهم ماذا حدث وماذا يحدث. تتراجع إلى الوراء وهو يندفع بلسانه نحوها، يتطاير اللعاب مع الغضب، ويخرج منه كلام برائحة العفن، كأنه ليس ابني، و لم يكن ابني، كأنه ليس وليد وحيدي الذي لم أنجب غيره، يهجم علي فجرا...أيّ فاجعة تهزني، أتراجع إلى الوراء لعلّي أحتمي من لسانه، يندفع نحوي كأسد جائع وجد فريسته. أيعقل ما يحدث أمامي؟ هل أحلم أم هو واقع بغيض بطله ابني؟".

فبالرغم من أن العادات والتقاليد، توحي بأن الرجل سند للمرأة، حيث يقول المثل الشعبي" إن ماتت أختك انستر عرضك، وإن مات أخوك انكسر ظهرك"، غير أن الواقع يعكس ذلك، بحيث كل يوم يزداد اضطهاد النساء أكثر من ذي قبل، فالعادات والتقاليد ليست بالضرورة نتاج حكمة أو خبرة، فقد يكون من سطّرها وتواضع عليها عنصر ذكوري مستبد، فلن يرض أن يسطّر عرفا مخالفا لمكانته ومقامه، فهو يعتبر نفسه مركزا أبا كان أو زوجا أو أخا أو خالا أم عما، وكل أنثى تعتبر هامشا، حتى إن لغة الخطاب ذاتها تجعل من المذكر أصلا، ومن المؤنث فرعا، فتخاطب المرأة بصيغة المذكر، حتى وإن كن جماعة من النسوة ويتوسطهن صبي، فيصير الضمير المخاطب به هو ضمير المذكر، يقول سيبويه في كتابه: " إن الأشياء كلها أصلها التذكير، ثم تختص بعد، فكل مؤنث شيء، والشيء يذكّر، فالتذكير أوّل، وهو أشد تمكنا"، فاللغة أيضا تولي الصدارة لكل ما هو مذكر.

٣- التنشئة الجندرية واضطراب الهوية الجنسية

ليست المرأة فقط من تعرضت لهذا الظلم والاضطهاد، فهناك فئة أخرى تعاني بصمت، فئة مهمشة نظر إليها المجتمع نظرة دونية تحيط من قيمتها، قوبلت بالرفض وعدم تقبلها كشريحة مكونة للمجتمع، وهي فئة المخنثين، وقد سلطت الحركة الجندرية الضوء على هذه الفئة، حتى تجد لها حلا في ظل إلغاء الفوارق البيولوجية، دعوة إلى دعوة إلى أحادية النوع، لأنها ترى أن التنشئة الاجتماعية، هي التي تعزز النمطية السائدة، فالجندر أساسا يقوم على " التفكير النمطي أن النساء يتبعّن للحيز الخاص، البيت، الأولاد، العائلة، أو أن الرجال يتبعون للحيز أو المجال العام، العمل، السياسة، الاقتصاد" (12)، فأصبحت "الفواعل الاجتماعية بمثابة سلطة تشريعية تشرع أدوار البشر، وهذا يعني " أن الرجل والمرأة يكتسيان الرجولة والأنوثة من أسرتهما ومجتمعهما وثقافتهما، لأنها ليست موروثة عن طريق التنشئة الأسرية" (13).

إن الهاجس الذي صار يلاحق المفكرين والروائيين والنقاد، وعلماء الاجتماع، وعلماء النفس، يتمثل في كيفية إعادة التوزيع العادل لأدوار الجنس البشري، وإلغاء النوع البيولوجي، الذي بدوره يصنف الإنسان ذكر أو أنثى، بل للفرد البشري حق في تحديد دوره، كونه مساويا للطرف الأخر.

إن الهوية الجنسية للجسد ليست نتاج الأعضاء الجنسية فحسب، وإنما هي "نتاج تقلصات الطفولة المبكرة، التي يتعلم فيها الطفل إدراك نفسه بصفته ولدا وبنتا، ثم يتعلم بعد ذلك تكييف سلوكياته، وفقا مختلف متطلبات الأدوار، والأوضاع السوسيو ثقافية المتناسبة مع هذه الهوية الجنسية

المكتسبة" (14)، فشخصية الشاب الذي يجهل حقيقته الجوهرية، فبالرغم من أنه ولد ذكرا بصفات بيولوجية ذكرية، جعل من المحيطين به يتعاملون معه على أساس ذكر.

فالطفل عند ولادته يكون حاملا نوعه الجنسي معه بشكل بارز، وهو العضو الذكري أو الأنثوي، وعندما يتم التعامل مع هذا المولود على أساس عضوه الجنسي البارز، حتى أن أمام المسجد يعرفه منذ الصغر، حضر عقيقته، وذبح كبشا باسمه من لحظة ميلاد الطفل، فمراسيم المؤسسة الاجتماعية تقنّن الهوية الجنسية للطفل منذ صغره، فيذهب الوالدين إلى معاملته حسب ما تمليه عليهم ثقافتهم الاجتماعية، في ما يخص التنشئة، البنت إذا كانت الطفل بنتا، أو فيما يخص تنشئة الولد، إذا كان الطفل ذكرا، كما أن البيئة المحيطة به، تؤثر في تفكير الأشخاص، وصناعة وعيهم.

فالمنطقة التي نشأت فيها الشاب هي قرية تملك مدرسة ابتدائية واحدة، توقف عندما يهطل الثلج،حتى أن الروائية تعمّدت تسميتها بحي الظّلمة، فالظلمة هنا بمعنى عدم التّحضر وقلة الوعي، فالوعي بالذات ينشأ حسب رأي العلماء في منطقة متحررة، تمتلك سبل العيش، وتنمو في أوساطها روح الحرية، " فإذا ذكرت المدينة ذكر معها التّقدم والتّرف، وكذا التّحضر في الفكر والسّلوك...ولا يكاد يذكر الريف إلا مقترنا بالبؤس والحرمان وشطف العيش، ولا يوصف أهل الريف إلا بالسّذاجة والتّخلف والبداوة الفكرية والسّلوكية "(15).

ترى الروائية أن المنطقة الاقتصادية، جعلت من الشاب يعي ذاته، فاستئجاره غرفة رفقة أصدقائه، والتشبع بأفكار أهل المدينة تركت منه شابا يقررها هويته الجندرية، فأم وليد قررت أن تقاسم حكاية الشاب، الذي خرج من القرية ذكرا، وعاد إلى المدينة أنثى فأصبح الشاب يرتدي تنورة وكعب عالي، ملون غير أن عودته إلى أهل القرية، كانت أشد وقعا عليه، اهتزت المدينة التي تركها قرية نزل الظلام شقّ كل بقعة ضوء، فكان الشاب يمشي مشية أنثى يختال في مشيته، يبحث عن محل الحلاقة، لم تعرف بعد المدينة الاختلاط في الحلاقة، دخل إلى حلاق كان الزبائن ذكورا، بقي دقائق بمدخل المحل للمشاهدة، التي تحولت إلى شتائم، وقذف بكلمات نابية، فر بسرعة، فالمؤسسة الاجتماعية ترفض مبدأ اللاتصنيف، أو فكرة الجنس الثالث، هذا ما جعل هذه الفئة، تمارس حياتها في الخفاء، فطبيعة البشر تهتدي إلى نمطين محددين ذكر أو أنثى، وتردع كل من مسّ بالهوية الجنسية، وسرعان ما بحث عن حلاقة النساء، وهو يهم بالدخول وجد نفسه مرميا بالرصيف مثل بقايا أكل رمته سيدة إلى قطط مجتمعة أمام بيتها، فالمجتمع يرفض الفكرة التي تزرع الشك في الهوية الجندرية للأشخاص، ويطمئن إلى التصنيف البيولوجي الذي يدعو إلى الجنسين ذكر أو أنثى، ويرفض فكرة الجنس الثالث، أو يرفض فكرة لا هوية.

ومن تجليات نسق الجندر، نجده في المصير المحتوم الذي ينتظر كل شخص قرر أن يتعدى على الأعراف الاجتماعية، وأن يتحول من جنس إلى آخر، فكان مصير الشاب أن عثرت عليه الشرطة غارقا في دمائه، فرفض جيرانه له جعله يحد من حياته، وقد وجدت الشرطة آخر منشور له، يقول فيه: "كل شيء موصد أمامي، أبواب تغلق في وجهي، من أنا؟!، كان شخصا رمى ملحا في عيني، لم أعد أرى لكن أشعر أنني أرى".

*** الخاتمة**

١- تعدّ الرواية أكثر الأشكال قدرة اليوم على احتضان القضايا المستجدة، والأقدر تشخيصا للتحولات الراهنة.

٢- إن الرواية مرتبطة في نشأتها وتطورها بمعالجة القضايا الاجتماعية، وفي مقدمتها المرأة وقضية تحررها.

٣- ظهور الحركة النسوية لتقويم وضع المرأة في المجتمع، في ضوء سيطرة الرجل.

٤- إن الهدف الذي تسعى إليه الرواية العربية في وقتنا الحاضر، تعرية الفحل وإظهار عيوبه النسقية.

٥- إن الذكورة والأنوثة ليست قضية عضوية، بل هي قضية اجتماعية.

٦- إن الهوية الجندرية ليست ثابتة بالولادة، وقد تتغير مع النمو، وبتأثير العوامل الاجتماعية.

٧- الأدوار التي يقوم بها الجنسان، هي أدوار تشكلها التنشئة الاجتماعية، وليس الاختلاف البيولوجي.

٨- تميزت الرواية العربية المعاصرة بجرأة الطرح، وتحطيم الطابوهات، بحيث سلطت الضوء على فئة مهمشة، وهي فئة المخنثين.

٩- المجتمع البشري يرفض فكرة الجنس الثالث، ويطمئن إلى التقسيم المنطقي ذكر أو أنثى.

١٠- لقد حمل عنوان رواية "لا أتنفس" دلالة كثيفة ومشحونة، فقد عبّرت بعمق عن إختناق شخصيات هذه الرواية، وبالأخص فئة النساء وفئة المخنثين.

*** المراجع**

معن خليل العمر، علم اجتماع الجندر، أستراليا، 2014، ص18.

سيمون ديبوفوار، الجنس الآخر، ترجمة: ندى حداد، الأهلية، ص10.

راوية يحياوي، من قضايا الأدب الجزائري المعاصر، دار ميم، الجزائر، ط1، 2018، ص209.

نزهة براضة، الأنوثة في فكر ابن العربي، الساقي، بيروت، ط1، 2008، ص33.

عبد الله الغذامي، النقد الثقافي، دار البيضاء، بيروت، 2005، ص77.

عبد النور إدريس، النقد الجندري (تمثلات الجسد الأنثوي في الكتابة النسائية)، دار فضاءات، المغرب، 2007، ص207.

خلود السباعي، (الجسد الأنثوي وهوية الجندر)، جداول، المغرب، ط1، 2017، ص177.